الفصل الثانى: تطبيقات على المنهج

القارىء الكريم ...

لكى نطل على عالم د. المسيرى الفكرى من خلال منهجه الذى عرضناه فى الفصل السابق، نعرض فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات رئيسية فى فكره:

1 – رسالـته الدكتـوراه.

2 – كتابه: الفردوس الأرضى.

3– رؤيته لإشكالية التحيز.

ثم نفرد بعد ذلك فصلًا مستقلًا للحديث عن «الموسوعة». ونختم بفصل من خارج عالم السياسة بعنوان «فى عالم الأدب والفن».

أولًا: رسالة الدكتوراه

الثمرة السابعة والتسعون...

صراعات حول الرسالة

بدأت فى كتابة رسالتى للدكتوراه عام 1967، وموضوعها:

«الأعمال النقدية لوليام وردزورث ووولت ويتمان:

دراسة فى الوجدان التاريخى والوجدان المعادى للتاريخ».

وقد اعتبرت الرسالة **قضية تهمنى على المستوى الفكرى والشخصى**، إذ وجدت فى ويتمان رمزًا للسيولة والعدمية واللامعيارية التى تتهدد الإنسان، وهو ما كان شاغلى الشاغل فى هذه الفترة. وقد استحسن زملائى هذا الاهتمام فأعلن بعضهم أنه لن يستمرفى كتابة أبحاث عن موضوعات عامة جافة، وأنه لن يستأنف برنامج الدراسات العليا إلا بعد أن يجد موضوعًا يهمه على المستوى الفكرى والشخصى.

*** لجنة المناقشة**

تحمس أستاذى البروفسير وايمر للرسالة بشكل منقطع النظير، فكان **نعم المشرف ونعم الصديق**. وحين انتهيت من كتابة الرسالة اختار ثلاثة أساتذة ممتحنين لمناقشتها من بينهم الأستاذ جورج، وهو حاليًا من كبار الكُتَّاب الأمريكيين. كنت أمقت الرجل، وكان ـ والحمد لله ـ يبادلنى المشاعر نفسها، كان جوهر الخلاف بيننا أنه ينظر إلى الأعمال الأدبية كنظرته للكائنات الطبيعية التى تولد وتموت تبعًا للحتمية البيولوجية، ومن ثم يرى أن **الأنماط الأدبية تولد وتموت** من تلقاء نفسها كذلك (كالملاحم البطولية

التى سادت فترة ثم اختفت)، وهذه النظرة تؤصل مفهوم «**نهاية التاريخ**». أما أنا فأعتقد أن اختفاء أنماط أدبية معينة إنما يرجع إلى مجموعة من الأسباب الإنسانية والفكرية والتاريخية المركبة وليس لعنصر مادى واحد، وهذا هو جوهر «**المذهب الإنسانى**».

حذرت أستاذى البروفسير وايمر من الأستاذ جورج، وقلت له إن الهوة الفكرية التى تفصل بينى وبينه ضخمة، وبالتالى سيكون من الصعب عليه مناقشة رسالتى (فهناك مساحة كبيرة تفصل بين أنصار نهاية التاريخ وأنصار المذهب الإنسانى)، فضحك الأستاذ وايمر وقال: «أنت ديكتاتور وسلطان شرقى لا تفهم الديمقراطية الأمريكية وروح الليبرالية»، فقلت له: «أنا أفهم جيدًا حدود الديمقراطية والليبرالية؛ **هناك خطوط حمراء إن عبرتها قُضى على**، وقد عبرت هذه الخطوط فى رسالتى للدكتوراه: طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤى الغربية السائدة، بل يتعامل مع الحضارة الأمريكية بطريقة أنثروبولوچية محايدة، تمامًا كما يتعامل أى أنثروبولوچى غربى مع إحدى القبائل الإفريقية». ضحك أستاذى وأصر على موقفه، فقمت بإرسال نسخة من الرسالة إلى البروفسير جورج وأخرى إلى البروفسير وليام فيليبس William Philips وثالثة إلى البروفسير ماريوس بيولى Marius Bewley (وكان من أهم المتخصصين فى الأدب الرومانسى).

وكنت قد تعرضت فى رسالتى لمسألة الشذوذ الجنسى عند ويتمان، وبيَّنت أنها ليست انحرافًا شخصيًّا وإنما هى جزء من رؤيته ويتمان للكون وتوجهه الحاد نحو اللذة، كما أن العداء للتاريخ وإعلان نهايته يؤدى إلى التمركز المتطرف حول الذات، ومن ثم فإن الشذوذ الجنسى هو النتيجة المنطقية لهذا الاتجاه. هذا على عكس الفعل الجنسى بين الرجل والمرأة (وبخاصة فى إطار الأسرة) فهو فعل اجتماعى تاريخى، له نتائج إنسانية عامة

إذ يعيد المجتمع إنتاج نفسه من خلاله فيضمن استمراره وترابطه. ومن هنا تنبأت بانتشار الشذوذ الجنسى فى الولايات المتحدة مع ازدياد التمركز حول الذات وتصاعد معدلات البحث عن المنفعة الشخصية واللذة الذاتية (هذا فى أواخر الستينيات قبل أن تصبح مناقشة مثل هذه الموضوعات أمرًا مألوفًا). كما تنبأت بأن مرحلة الشذوذ ستتبعها مرحلة أكثر انغلاقًا على الذات، وهى مرحلة الاستمناء، حيث لا يدخل الإنسان فى علاقة إلا مع نفسه، ولعل انتشار الإيدز والإنترنت سيساعدان على ذلك.

أذكر هذا الموضوع لأن البروفسير ماريوس بيولى كان شاذّا جنسيًّا، وكان صديقه البورتوريكى يأتى لمقابلته فى القسم، وقد مات البروفسير بيولى بصورة تشبه مرض الإيدز الذى لم يكن قد اُكتشف بعد. أما البروفسير جورج فقد كان متزوجًا، ومع ذلك أخبرت أستاذى (ساخرًا) بأن موقفه من العالم هو موقف المتمركز تمامًا حول ذاته، فهو شاذ جنسيًّا من الناحية الفكرية والنفسية، رغم أنه متزوج وأنجب أطفالًا، وبالفعل دعا هذا البروفسير أعضاء أسرته عام 1972، وأخبرهم بأنه سيُطلِّق زوجته ليعيش مع صديقه، وقد أصبح بعد ذلك من أكبر المدافعين عن الشذوذ الجنسى.

الثمرة الثامنة والتسعون...

موضوع الرسالة: الوجدان التاريخى والوجدان المعادى للتاريخ

هناك رأى سائد فى الأوساط العلمية يرى أن وردزورث (**إنجليزى أنجليكانى**) قد «**أثَّر**» فى **ويتمان** (**أمريكى بروتستانتى من طائفة الكويكر**). وكان المطلوب منى فى رسالة الدكتوراة أن أحدد هذا الأثر بأسلوب الموضوعاتية المتلقية الفوتوغرافية. ولكنى فعلت العكس تمامًا! فانطلقت فى الرسالة من **رفضى لفكرة التأثير والتأثر ومن الإيمان بالعقل التوليدى والإنسانية المشتركة**.

*** الجزء الأول من الرسالة (الأطروحـة)**

لجأت فى عرضى لوجهة نظرى إلى حيلة سماها أستاذى **خطة ديالكتيكية**، أى أنها تحوى الشىء وضده ثم تصل إلى حل يجمع بينهما. بدأت بأن اصطنعت موقف العالم الأكاديمى القح صاحب الموضوعاتية الفوتوغرافية الذى يؤمن بأهمية **تَعَقُّب علاقات التأثير والتأثر** بين الكُتَّاب وكأنه شرلوك هولمز. وبصرامة بالغة مصطنعة، بيَّنت أن وردزورث أثَّر على ويتمان فى 24 موضعًا مختلفًا، وقدمت البراهين القوية على ذلك من خلال عمودين متقابلين، توجد فى الأول مقتطفات من شعر ونقد وردزورث، وأدرجت فى الثانى مقتطفات من شعر ونقد ويتمان، تبين تأثير وردزورث عليه.

ولكننى فى خاتمة هذا الجزء أعلنت بطريقة فجائية وغير متوقعة أن هذه **حقيقة لا قيمة لها على الإطلاق**، إذ ما فائدة أن نعرف أن فلانًا قد أثَّر فى علان فى أربعة وعشرين موضعًا مختلفًا؟ وسميت هذا مجرد «معرفة» scienti وليس «حكمـة» sapientia، أى أننى **ميَّزت بين الظاهرة الطبيعية المادية البسيطة (المعرفة) والظاهرة الإنسانية المركبة (الحكمة)**، وميزت بين الحقائق والحقيقة والحق. كما بيَّنت خطورة النموذج المعلوماتى التراكمى الذى يساوى بين المعلومات والمعرفة، ثم أضفت قائلًا: «فلنبدأ إذن من حيث يجب أن نبدأ، من **عالم رؤية الكون والجذور الثقافية والتاريخية والدينية والاقتصادية للكاتبين**».

*** الجزء الثانى (الأطروحة المضادة)**

أدركت من خلال حوار استمر عدة سنوات مع الصديق كافين رايلى حول تجربتى فى الولايات المتحدة **أهمية «البُعد التاريخى»**، فاستخدمته فى رسالتى. لقد قارنت بين وردزورث وويتمان مستخدمًا «مقولة التاريخ» فى

مقابل «**مقولة الطبيعة**»، أى أننى استخدمت نموذجًا تحليليًّا قُوامه التعارض بين الإنسان المركب صاحب الوجدان التاريخى الذى يستطيع تجاوز الطبيعة وبين الإنسان البسيط الطبيعى المعادى للتاريخ والذى يُرَد إلى ما هو دونه، أى إلى عالم الطبيعة/ المادة.

لقد أشرت إلى أن كلًّا من وردزورث وويتمان قد تم تصنيفهما على أنهما شاعران «رومانتيكيان»، واعتُبرت هذه حقيقة صلبة لا يمكن الاختلاف بشأنها، لكننى وجدت أن نقط الاختلاف بينهما جوهرية وقوية الدلالة. فالشاعر **الإنجليزى (وردزورث)** ينتمى إلى الكنيسة الإنجليكانية ذات **التوجه الكاثوليكى** رغم أنها ليست كاثوليكية (تتميز بتأكيدها على الطقوس وعلى فكرة الكنيسة كمؤسسة وسيطة بين الإنسان والإله)، بينما ينتمى **الأمريكى (ويتمان)** إلى جماعة الكويكرز (**جماعة بروتستانتية متطرفة** ترفض الطقوس وترفض أى وساطة بين الإنسان والخالق، وتؤكد على ما يُسمَّى «الصوت الداخلى»، الذى يسمعه الإنسان داخله ويتلقى منه الإلهام والمشورة، مما يسقط أى فائدة للطقوس والشعائر).

كذلك كان وردزورث يعيش فى **مجتمع (إنجلترا) مر بكل المراحل التاريخية** لما قبل الرأسمالية، تتداخل فيه الحداثة بالتقاليد، والعناصر المادية بالعناصر الروحية. أما ويتمان، فكان يعيش فى **مجتمع استيطانى** (أمريكا) ليس له تراث تاريخى، مجتمع يتجه إيقاعه العام نحو الآن وهنا، والمباشر والمحسوس والعملى، وهـذه فى تصورى أحاسيس معاديـة للتاريخ، إنه مجتمع لا يعرف إلا الشكل الرأسمالى فى التنظيم الاقتصادى وفى الرؤية للكون.

لكل هذا، فإن موقف الشاعرين من الكون مختلف تمامًا على الرغم من بعض التشابه فى التفاصيل. **فوردزورث يرى أن العودة للطبيعة والامتزاج بها**

(الحلولية المادية) هى نزعة معادية للتاريخ والدين والإنسان. ومن ثم، فإن العودة للطبيعة التى تظهر فى بعض أشعاره هى مجرد «صور مجازية» أو لحظات مؤقتة لا تدوم. ومن هنا فإن «**شاعر الطبيعة**»، كما كان يُسمَّى، لا يفقد ذاته بالذوبان فى الطبيعة، فهو يستند إلى تراث تاريخى قوى وإيمان عميق بالإنسان وبالإله الذى لا يتجلى فى الصوت الداخلى وحسب وإنما من خلال طقوس اجتماعية. وبالتالى فوردزورث فى واقع الأمر هو «**شاعر الإنسان**» فى لحظات حزنه وفرحه وليس شاعر الطبيعة (وهذا وصف وردزورث لنفسه).

ثم قارنت هذا بشعر **ويتمان**، الذى وصفته بأنه **شاعر حلولى مادى** يعادل بين الروح والمادة ويقرن بينهما، وهو يتغنى بالمادة والجنس والكهرباء والجاذبية الأرضية التى يرى أنها تشبه الجاذبية الجنسية. فالإنسان ليس إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة وعليه أن يتكيف معها ويذعن لها. **وعداء ويتمان للإنسان المركب التاريخى** يترجم نفسه فى محاولته الوصول إلى نهاية التاريخ وإلى اليوتوبيا التكنولوچية، لذلك فإن ويتمان يرى أن **أمريكا هى الفردوس الأرضى**، فهى دولة العلم والتكنولوچيا التى ستهدم التاريخ وتعلن نهايته (وذلك قبل أن يتحدث فوكوياما فى نهاية الثمانينيات عن انتصار الليبرالية التى تؤدى إلى نهاية التاريخ). بل إن التاريخ يظهر فى أشعار ويتمان وفى كتاباته النقدية كجثة هامدة وعبء ثقيل يحاول الإنسان قدر طاقته أن يتخلص منه، حتى ينطلق من نقطة الصفر (ونقطة الصفر هذه تشبه أمريكا التى رفضت التاريخ الأوروبى لتبدأ من «جديد» بلا تراث تاريخى ولا أعباء أخلاقية).

*** أن تكـون خليـفة من الله فى الأرض**

أم تهيم مع الحيونات فى البَرِّية... اختـــر

وشعر ويتمان مفعم «بالرغبة فى العودة الدائمة إلى الطبيعة»، ليس مثل وردزورث الذى يعود إلى الطبيعة مجازًا وحسب وللحظات وحسب.

فالكثير من قصائد ويتمان تبدأ بالابتعاد التدريجى عن كل ما هو إنسانى مع الاقتراب المتزايد من الطبيعة إلى أن يلتحم بها تمامًا ليصل إلى لحظة **ذوبان الذات الإنسانية فى الطبيعة المادية**، وهى عادةً ما تكون لحظة قذف جنسية (مع محبوب من نفس جنسه) يُعلن فيها تحرره من عبء التاريخ ومن التدافع ومن الهوية الإنسانية، فهى لحظة نهاية التاريخ وتَحَقُّق الفردوس الأرضى.

وقد خلصت إلى أن وولت ويتمان، الذى يسمونه فى الولايات المتحدة «شاعر الديمقراطية الأمريكية»، هو فى واقع الأمر «**شاعر الشمولية وموت التاريخ والإنسان**».

وبالتدريج اكتشفت علاقة نهاية التاريخ بغياب الحس الخُلُقى، وأدركت أن إلغاء التاريخ فى أمريكا (الدولة الاستيطانية) يعنى فى واقع الأمر شرعية إبادة العنصر السكانى الأصلى (التاريخى)، حتى يبدأ المستوطنون واقعهم من نقطة الصفر. فالعداء للتاريخ هو فى واقع الأمر عداء للإنسان.

ويمكن تلخيص رؤيتى لجوانب الاختلاف بين الشاعرين فى **اقتباسين** وضعتهما فى مقدمة الرسالة، أحدهما من القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ [البقرة: 30]، وأرى أن هذه الآية تعكس رؤية وردزورث. والاقتباس الآخر من ويتمان يعلن فيه (إنه سيذهب ويعيش مع الحيوانات فهى مكتفية بذاتها)، وأضيف الآن أن القرآن يجسد هذه الرؤية فى سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [الآيات 4 - 5].

*** الجزء الثالث (الأطروحة المركبة)**

فى هذا الجزء من الرسالة اقترحت أن نعيد النظر فى مسألة التأثير والتأثر، وبيَّنت وجود أثر مادى وملموس بين الشاعرين **ولكنه سطحى**؛ لأن بنية

فكر وردزورث ورؤيته (خريطته الإدراكية) لم تؤثر البتة فى ويتمان، أى أن **الاختلاف (الفكرى والثقافى) بينهما أهم كثيرًا من التشابه (المباشر المادى).**

*** الجزء الرابع والأخير (الممارسة)**

كتبت هذا الجزء بشكل فكاهى ساخر إلى حدٍّ ما كما يتضح من عنوانه الإضافى: «عشرون طريقة يمكن للجنس البشرى بأسره أن يستفيد بها من رسالتى للدكتوراه»، وختمته بنفس العبارة التى خُتم بها البيان الشيوعى ولكن بعد تعديلها: «يا عمال العالم – لكل هذا – اتحدوا».

الثمرة التاسعة والتسعون...

مناقشة الرسالة

انهيت الرسالة وقدمتها لأستاذى الذى أرسل بها إلى المناقشين الثلاثة، وقابلنى بيولى وأخبرنى بأن رسالتى للدكتوراه **هى أحسن رسالة قرأها فى حياته الأكاديمية**، بينما قابل البروفسير فيليبس الرسالة بفتور شديد وقال باقتضاب «**عمل عظيم**»، أما البروفسير جورج فقد **أعاد رسالتى** بعد ساعتين من تسلمه لها وزعم أنه فعل ذلك بسبب وجود خطأ فى علامات الترقيم فى الصفحة الثانية ! فصُعق أستاذى وأخبرنى بأن ما قلته عن حدود الديمقراطية ـ على ما يبدو ـ أمر صحيح.

وبعد أن رفض البروفسير جورج الرسالة، اضطررت لقضاء ستة شهور كاملة **لإعادة كتابتها وتنقيحها**، كما استبعدت الكثير من عبارات الذم والقدح فى ويتمان وفى الحضارة الأمريكية، وإن كنت قد زدت من عيار الهجوم الفعلى ووازنت هذا ببرود أسلوبى وحياده.

ثم تقدمت بالنسخة الجديدة، وحُدِّد موعد المناقشة، وفوجئت بالأساتذة قد جاءوا ومعهم أطنان من الورق وأسئلة مكتوبة، وهذا أمر غير مألوف بعد

قبول الرسالة للمناقشة. وصُعق أستاذى للمرة الثانية (كان أستاذى يُصعق دائمًا حينما يرى الشر، كان خيِّرًا وقديسًا لدرجة تثير الفرح والأسى فى نفس الوقت)، وقررت أن أستخدم مدفعيتى الثقيلة وبكل ضراوة، وقرر أستاذى أن يأخذ صفى دون أى تحفظ، وهذا أيضًا أمر غير مألوف، فوظيفة المشرف فى مثل هذه الحالات هى إدارة الحوار وحسب.

*** المبـارزة**

بدأت المناقشة، فلام علىّ الممتحنون **غياب بعض كبار النقاد** من قائمة المراجع، فلخصت لهم أطروحات هؤلاء النقاد ووصفتها بأنها أطروحات تافهة ومن ثم فهم لا يستحقون أن يُذكروا فى رسالتى للدكتوراه؛ لأننى **لن أذكر كل من هب ودب** من أيام آدم إلى أيام جونسون ونيكسون.

وعرض على أحد الأساتذة بعض مقطوعات من شعر وردزورث ذات طابع حلولى مُغرق فى الحلولية، فقلت على الفور: أننى طبعًا أعرف هذه المقطوعات الحلولية المتطرفة، وأعرف أنها وُجدت ضمن أوراقه، هذه حقيقة مادية لا مراء فيها، ولكن الأهم من هذا كله أن **وردزورث نفسه قام بحذْفها من قصائده**، وحذْفها من دواوين شعره أعمق دلالة من وجودها فى درج مكتبه!.

كما أخبرت أساتذتى بأن **رسالتى للدكتوراه هى ظاهريّا عن وردزورث وويتمان، بينما هى فى واقع الأمر عن الصراع العربى الإسرائيلى**، الصراع بين مجتمع تاريخى (المجتمع العربى فى فلسطين) ومجتمع معاد للتاريخ (التجمُّع الاستيطانى الصهيونى)، **وأن العودة للطبيعة هى العودة إلى صهيون، وأن العداء للتاريخ هو جوهر الصهيونية** (وقد استخدمت هذا النموذج التحليلى الذى استخدمته فى الدكتوراه فى دراساتى للصهيونية فيما بعد).

*** النتيجة**

بعد انتهاء النقاش، خرجت من الغرفة حتى تتداول اللجنة. وحينما عدت، أخبرونى بأنهم وافقوا على منحى درجة الدكتوراه، ثم أداروا ظهورهم لى ولم يصافحونى كما هو مُتَّبع فى مثل هذه المناسبات، فصُعق أستاذى للمرة الخمسين. ثم أخبرنى استاذى بأنهم قالوا له فى أثناء المداولة: «**إن حياتهم ستكون مختلفة بعد رسالة المسيرى**»، وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح إليه أى رسالة. ثم تساءل: «لماذا إذن عاملوك بهذه الطريقة الجافة؟» فشرحت له للمرة المائة نظرية الخطوط الحمراء التى لا يمكن للمرء عبورها، وأن هذا ما فعلته حين قدمت رؤيتى لويتمان والحضارة الغربية الحديثة، وأخبرته بأنه لولا أنه هو المشرف على رسالتى لما حصلت على الدكتوراه من أى جامعة أمريكية. وكان استاذى يتأكد بنفسه من مسألة الخطوط الحمراء هذه كلما أرسل برسالتى لتُنشر؛ إذ كان طلبه يُقابل بالرفض.

*** موقف موضوعى حقيقى**

ومع هذا يجب أن **أعترف بمقدرة الممتحنين على تجاوز غيظهم منى وحنقهم علىّ**، وهذا أمر أساسى فى العملية التربوية. وهذا موقف لا يمكن أن يحدث ـ للأسف ـ فى مصر، فلا بد من أن يكون الأساتذة راضين تمام الرضا عن الطالب وإلا فنصيبه هو الضياع والخراب والدمار والهلاك، وربما ما هو أكثر من ذلك.

الثمرة المائة...

الخطوط الحمراء وأوهام الحريات الأمريكية المطلقة

لم تقتصر مسألة الخطوط الحمراء التى لا يُسمح بتجاوزها فى الولايات المتحدة على ما ذكرت أثناء إعدادى ثم مناقشتى لرسالة الدكتوراه، بل لقد عاصرت الكثير من هذه المواقف أثناء وجودى هناك. أذكر من ذلك موقفًا

حدث مع أحد الأساتذة الأمريكيين؛ كان أستاذًا يساريًا فى جامعة رتجرز، وكان يتخذ موقفًا معاديًا لحرب فيتنام، ولم يكن من الممكن أن تطرده الجامعة بسبب أفكاره، فقام مجلس الولاية بتقليص ميزانية الجامعة، ثم سُربت رسالة إلى أعضاء هيئة التدريس مفادها أن تقليص الميزانية سببه هو وجود هذا الأستاذ اليسارى فى الجامعة، فبدأ الأساتذة أنفسهم بالضغط عليه حتى يترك الجامعة، فرفض فى بداية الأمر، ولكن بعد قليل أصبح الأمر لا يمكن تحمله، فاضطر الأستاذ للاستقالة.

ثانيًا: كتاب الفردوس الأرضى

﴿...وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث...﴾[الأعراف: 176].

الثمرة الأولى بعد المائة...

إرهاصات الكتاب

حين وصلت إلى الولايات المتحدة بلد الحرية والديمقراطية عام 1963، وجدت نفسى كارهًا لما حولى؛ إذ أحسست أننى وصلت إلى «سوق كبير»، وبرغم حبى لكثير من الأمريكيين (فهم شعب طيب نشيط متفتح الذهن) فإننى وجدت أن **النظام المهيمن يجهض إنسانيتهم، ويخاطب أحط ما فى الإنسان**.

وحينما عدت إلى مصر وبدأت أفكارى تتحول عن الماركسية، قلت لنفسى ربما كان موقفى المتحيز ضد الولايات المتحدة متأثرًا برؤيتى الماركسية، لذا حين عدت مرة أخرى عام 1975، قررت أن أحاول النظر للمجتمع الأمريكى بعقل أكثر تفتحًا، ولكن هيهات، فقد ازددت اقتناعًا **بخطورة النموذج المادى المهيمن على الولايات المتحدة**، لا على الأمريكيين

كبشر وحسب، وإنما كذلك على الجنس البشرى بأسره. وقد ازدادت قناعتى على مر الأيام.

بطبيعة الحال لم أكتف بالتأمل، وقررت أن أترجم تأملاتى للظاهرة الأمريكية إلى دراسة أنقل من خلالها أفكارى للقارئ العربى، وأعرض عليه ثمرة تجربتى التى نُشرت بعد ذلك فى كتابى «**الفردوس الأرضى: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة**» (1979)، وتنطلق الدراسة من نفس المقولة الأساسية فى فكرى، أى **الفصل بين الإنسانى والطبيعى**. وصفت فى هذه الدراسة النزعة الاستهلاكية المهيمنة على الإنسان الأمريكى والإنسان الحديث بصفة عامة، وكيف أنها تعنى **الارتباط «بالآن وهنا»**، وأعلنت أن ذلك يلغى الماضى والمستقبل، أى **يلغى التاريخ**، لذلك فالإنسان الأمريكى يحاول أن يؤسس فردوسًا أرضيًا يمكنه التحكم فيه.

ويعالج الكتاب هذا المفهوم من خلال ثلاثة موضوعات رئيسية:

الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ.

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

مشكلة المرأة والضغوط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث.

الثمرة الثانية بعد المائة...

الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ

* الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى:

أبناء السفاح وأبناء النكاح

تحدثت فى مقدمة الكتاب عن الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى، ووصفت الإنسان التاريخى (صاحب النزعة الربانية) بأنه إنسان يتسم

بالثنائية، فهو يعيش فى التاريخ (الدنيا) ويبحث عن المطلق خارج التاريخ، فهو يفصل بين المطلق والنسبى، ويحلم بالفردوس خارج عالم المادة وخارج الزمان فى الحياة الأخرى.

ثم بينت أن **الإنسان الطبيعى** (أسير النزعة الجنينية) إنسان يرفض الحدود التاريخية والأخلاقية بل والإنسانية. وهو فى بداية الأمر **إنسان روسو** الحر الفرح الآمن، وروسو هو الفيلسوف الفرنسى الذى كان يتصور أن حالة الطبيعة هى حالة البراءة والفردوس والحرية الكاملة، أما حالة الحضارة فهى حالة القيود والعبودية، وله عبارة شهيرة: «وُلد الإنسان حرًا وهو الآن مكبل بالأغلال فى كل مكان»، لذلك فإنسان روسو الحر هو الذى لا تحده حدود أو قيود. ثم يتحول إلى **إنسان دارون** المتجهم الذى يلتهم الضعاف من البشر أو تلتهمه الذئاب من البشر الطبيعيين الماديين. ثم تحول أخيرًا إلى **كلب بافلوف** المسكين، القابع فى المعمل، لا يتحرك إلا بعد تلقى إشارات برانية، فهو ظاهر مادى محض، ليس له باطن إنسانى.

ويسعى القائمون على تشكيل الإنسان الطبيعى لتحقيق «**الفردوس الآن وهنا**» إلى إشباع كل رغبات البشر، متبعين آخر الأساليب العلمية. إن هذه **الرؤية الميكانيكية البسيطة** تفترض أن الإنسان كَمٌّ محض لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى، أى **أن الإنسان الحديث قد تم تدجينه وترشيده تمامًا**.

*** اليوتوبيا التكنولوچية.**

لم يعد هذا «التصور الفردوسى الأرضى العلمى» قضية فلسفية تشغل فلاسفة الرأسمالية والتكنولوچيا فحسب، لكنه أصبح جزءًا من تصورات المواطنين العاديين فى الدول الصناعية فى الغرب. **لقد أصبح التقدم العلمى**

هدفًا فى حد ذاته (اليوتوبيا التكنولوچية) بغض النظر عن العائد المعرفى أو الإنسانى له، وبغض النظر عن مقدار البؤس أو السعادة التى يجلبها للبشر. لقد أصبحت مضاعفة الإنتاج أمرًا مرغوبًا فيه دون أى حُسبان لحاجات الإنسان الحقيقية (كما ظهرت وترسخت عبر التاريخ) ودون أى احترام للبيئة الطبيعية. أى أن هدف الإنتاج لم يعد إشباع الرغبات الإنسانية، وإنما **أصبح الإنتاج هو ذاته الهدف والغاية النهائية، وهذا هو قمة الاغتراب**. وتدور عجلة المصانع فى سرعة خرافية لتنتج سلعًا وأشياء لا يريدها الإنسان، لكنها فى دورانها تلوث البيئة بالأحماض والعادم الصناعى فتدمر الإنسان من الخارج، ثم تغرقه فى السلع والتفاصيل لتدمره من الداخل.

*** تساقطت الحواجز بين الأيدولوچيات،**

ولم يبق إلا الإنسان الطبيعى أسير النزعة الجنينية

قد يُقدَّر لهذه **الحضارة الأمريكية**، المعادية للحضارة والتاريخ، لها السيطرة على **المجتمعات الرأسمالية الأخرى** ذات التاريخ العريق والتراث القومى والدينى، بل إننى أعتقد أن **المجتمعات الاشتراكية** مهددة بهذا الغزو الحضارى الأمريكى أكثر من غيرها؛ لأنها مجتمعات قطعت صلتها بتراثها القومى والدينى وخلقت فراغًا حضاريًا لا يمكن أن تزدهر فيه سوى القيم المادية الأمريكية، خاصةً وأن هذه المجتمعات الاشتراكية لا تزال تُقَوِّم نجاحاتها وإنجازاتها بالمعايير المادية الميكانيكية غير الإنسانية، مثل زيادة حجم الإنتاج والهبوط على القمر.

لقد أكتشفتُ أن الإنسان الطبيعى الذى يدور فى إطار مادى يتلاقى عنده كلا النظامين الرأسمالى والاشتراكى، وأن **المرجعية الطبيعية المادية هى المرجعية النهائية لكليهما** (نظرية التلاقى بين النظامين convergence)، والتلاقى هو توحد النماذج كلها بحيث تتبع نمطًا واحدًا وقانونًا عامًا

واحدًا، هو **قانون التطور والتقدم**، بحيث يُصبح العالم مُكَونًا من وحدات متجانسة، ما يحدث فى إحداها يحدث فى الأخرى. فما حدث فى العالم هو سقوط الماركيسية Marxism وظهور **عبادة السوق** Marketism. **وعبادة السوق** هذه وهيمنتها على العالم بأسره، شماله وجنوبه وشرقه وغربه هى فى واقع الأمر نقطة التلاقى التى تَحَدَّث عنها علم الإجتماع الغربى.

انطلاقًا من هذا التصور، طالَب العالم السوفييتى زخاروف Zakharov بتخطى الخلافات الأيديولوچية بين الاشتَراكية والرأسمالية وبتوحيد جهود علماء العالم لإسعاد البشر، كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الأمراض، متناسيًا أن العلم يتعامل مع عالم الطبيعة وحسب، وحينما يتعامل العلم مع الإنسان فإنه يتعامل معه باعتباره كائنًا طبيعيًا، أما الإنسان ككائن تاريخى مركب فيقع فى مجال الفلسفة والأيديولوچيا والدين.

*** أوهـام الفلسفـة البراجـماتية**

وقد هاجمت فى كتاب الفردوس الأرضى الفلسفة البراجماتية، وهى الفلسفة الأمريكية التى جعلت «النجاح» هو الحقيقة الوحيدة المقبولة، وهو المعيار الوحيد للحكم على كل الأشياء.

إن البراجماتية ترى أن كل شىء نسبى متغير، و«**الشىء الحقيقى**» ليس هو ما يتفق والقيمَ الأخلاقية والدينية كما تقول الأديان السماوية، وإنما الحقيقى هو ما ينجح. إن أى شىء ينجح فى أن يحرز مكانة خاصة به وفى أن يفرض نفسه على الواقع تصبح مكانته قائمة وثابتة (وبذلك ألغت التاريخ والتراث)، فالطبيعة تلد كل شىء ولا تتحيز لأى شىء، ولا يوجد أى شىء أحق من أى شىء آخر، إنها بحق فلسفة الطبيعة/ المادة.

إن البراجماتية هى فى الواقع فلسفة العنف ضد الإنسان. يرى الفيلسوف

البراجماتى وليام جيمس «أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفترس أبناء نوعه»، إذ إن الإنسان قد تكيف وإلى الأبد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طالت أن تمحو من الوجدان الإنسانى الرغبة فى الحرب. لقد ولدنا كلنا لنحارب، والمجتمع سيصاب حتمًا بالركود والعفن دون حرب». إن الداروينيين لا يُضفون على الإنسان أى خصوصية، وإنما يعتبرونه كائنًا طبيعيًّا تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية، شأنه فى هذا شأن أى كائن آخر دون أى تمييز خُلُقى أو تاريخى أو جمالى، إنه عالم نيتشوى داروينى يحكمه قانون الغابة؛ «**البقاء للأصلح**».

* ليس غزوًا ثقافيًّا بل غزوًا استهلاكيًّا

لقد تغير نموذجى الإدراكى تجاه ما يحدث فى الولايات المتحدة، وبدلًا من الحديث عن الحضارة الأمريكية الحديثة، أشير الآن إلى ما أسميه «**الحضارة الاستهلاكية العالمية**» التى تتسم منتجاتها الحضارية (الهامبورجر - البلوچينز - الديسكو... إلخ) بأنها بلا طعم ولا لون، ولا تنتمى لأى تشكيل حضارى، وإنما هى **حضارة معادية للحضارة، حضارة مضادة anti-culture** تحاول تقويض كل التشكيلات الحضارية الأخرى بما فى ذلك الحضارة الأمريكية نفسها. إن «**الغزو الثقافى**» ليس غزو الثقافة الغربية لنا (فهم لا يُصدِّرون لنا شكسبير وموزارت وبوشكين) وإنما غزو هذه الحضارة الاستهلاكية العالمية لكل الحضارات وتقويضها لظاهرة الإنسان.

الثمرة الثالثة بعد المائة...

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل

إذا تأمل المرء كلًا من الولايات المتحدة والدولة الصهيونية فإنه يلاحظ التشابه والتطابق بينهما، ولعل ذلك يرجع إلى أن **كليهما يرفض التاريخ بعناد وإصرار**، أو على الأقل يحوله إلى أسطورة متناهية فى البساطة.

* جذور الوجدانين الأمريكى والصهيونى

لقد بدأ التاريخ الأمريكى حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد أو أرض الميعاد هربًا من المشكلات التى أثارها «التاريخ المسيحى الأوروبى». **فالبيوريتانيون أو المتطهرون** هم لفيف من **البروتستانت المتطرفين** الذين وجدوا أن من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الإنجليكانية لأنها لم تبتعد بالقدر الكافى عن النمط الكاثوليكى فى العبادة بما يتميز به من طقوس وتماثيل وزخارف، فطالبوا «**بتطهير**» العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الدخيلة التى لم يأت لها ذكر فى العهد القديم أو الجديد. إن «**العودة إلى البساطة الأولى**» كانت الهدف الأسمى للمتطهرين الذى حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (أو صهيون الجديدة كما كانوا يسمونها) حسب المُثُل والقواعد التى وضعها وطبقها المسيحيون الأُول، لذا يمكننا القول بأن الوجدان البيوريتانى يرفض التاريخ المسيحى كله، بل يرفض أى رؤية تاريخية على الإطلاق.

والرفض البيوريتانى الأمريكى للتاريخ الأوروبى يقابله **الرفض الصهيونى الإسرائيلى لتاريخ اليهود** المشتتين فى دول العالم (الدياسبورا = الشتات). لذلك فهم يطالبون بالعودة «للبساطة الأولى» أيام كان اليهود يعيشون ككيان قومى مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخية) فى المجتمعات غير اليهودية. ويرى الصهاينة أن ذلك يؤدى إلى النهاية الإسرائيلية السعيدة كما تبين نبوءات العهد القديم، لذلك نجد فى الفردوس اليهودى الجديد (إسرائيل) أن كل المواطنين يحملون أسماء عبرانية لها رنين خاص.

إن أسطورة العالم الجديد الذى يتحلى بالبساطة والبراءة والذى هو أقرب إلى الفردوس الأرضى تسيطر على الوجدانين الأمريكى والصهيونى. لم يختلف فهم **البيوريتان** لمدينتهم الفاضلة كثيرًا عن فهم **الصهاينة** لإسرائيل،

فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم إنما هاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد لينشئوا «مدينة على التل» تنظر إليها كل الأمم وتحاكى أفعالها، وبذا يعم الخير ويأتى الخلاص. ومما له دلالته وطرافته أن مؤسسى الجمهورية الأمريكية قد فكروا بعد إعلان الاستقلال فى جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية بحُسبان أن الجمهورية الوليدة هى صهيون الجديدة.

وكما هو الحال مع الإسرائيليين، نجد أن البيوريتانيين يرون فى كل شىء علامة مرسلة من الله يُستشهد بها على شىء ما، فاستخدموا هذه «**العلامات الربانية**» لتسويغ كل أعمالهم العدوانية لإبادة الهنود الحمر واحتلال لأراضى الغير. وقد استمر هذا التزاوج بين الأحلام الدينية والأحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر، ويمكن القول بأن هذا الخطاب الدينى لم يختف تمامًا، ولعل ظهور ما يسمَّى **بالأصولية المسيحية** (التى عادت بكامل شراستها على يدىّ بوش) هو أكبر دليل على ذلك.

*** عقلية الكاوبوى: من شابه أباه فما ظلم**

إن «**عقلية الريادة**» تسيطر على كل من الصهاينة والأمريكيين. فالبيوريتانيون «**اكتشفوا**»! أمريكا ثم انتشروا فيها عن طريق إنشاء مستعمرات ذات طابع زراعى عسكرى. والمستوطنون الصهاينة هم الآخرون «**اكتشفوا**»! فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة. **وعقلية الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر، والنتائج العملية على الاعتبارات الخُلُقية**، إنها عقلية الكاوبوى الذى ينتصر لأنه يطلق مسدسه فى الوقت المناسب وقبل خصمه بجزء من الثانية، ثم يمسح فوهة مسدسه وهو يُقبِّل عشيقته حتى لا يضيع وقته فيما لا يفيد. وقمة الإنجاز هو دائمًا ذبح الخصم: «أنا أذبح (خصومى) لا كروسى يهودى أو فرنسى يهودى بل كيهـودى يهودى، هذا هو منای» (كما يقول أحد أبطال القصص الإسرائيلية).

ولعل نقطة التشابه الأساسية بين الوجدانين الأمريكى والصهيونى الإسرائيلى هو «**العنف العنصرى**»، بما فيه من تناقضات: عالم جديد برىء بسيط لا يمكن أن يُشيَّد إلا عن طريق العنف والإبادة (إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين)، الفردوس والجحيم فى آنٍ واحد !.

*** فابريكة الإنسان الجديد فى نيويورك وحيفا**

كان على المهاجرين إلى المجتمعين الأمريكى والإسرائيلى أن يطرحوا عن أنفسهم هُوياتهم القديمة ليكتسبوا هُوية قومية جديدة بمجرد وصولهم إلى نيويورك أو حيفا. **واكتساب الهُوية الجديدة هو مشكلة المشكلات بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث**، لذلك ينبغى أن «**تفبرك**» هذه المجتمعات «**تراثًا جديدًا**» يدور حول أسطورة بسيطة يؤمن بها «الإنسان الجديد» ويجتمع حولها المهاجرون من كل صوب. فاستحدثت أمريكا شيئًا يجمع هذا الشتات، فكانت «**أسطورة آدم الجديد الديمقراطى**» الذى يأتى إلى الأرض أو الجنة العذراء ليقيم فيها ويستلهم كل ما فى التراث العالمى من إيجابيات وينفتح على كل الحضارات. أما الصهاينة فقد (فبركوا) «**أسطورة اليهودى الخالص**» المنفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذى يهاجر إلى أرض الميعاد اليهودية ليحارب فى جيش يهودى ويزرع فى حقل يهودى ويقرأ فى كتاب يهودى (وربما يحب على الطريقة اليهودية، ويقتل بالطريقة نفسها!).

إن **بوتقة الصَّهْر** التى تمزج الأخلاط المتباينة من البشر فى المجتمعات الاستيطانية وهمٌ كبير، **إن الكل الأمريكى المتجانس لا وجود له**. فهذا الإنسان الجديد البرىء من الشر وأيضًا من التاريخ والمعرفة لم يُقَدَّر له أن يخرج من البوتقة مبتسمًا كأنه فى إعلان تليفزيونى، بل خرج بدلًا منه الصهيونى مزدوج الولاء، والأفروأمريكى حامل لواء قارته السوداء والمدفع

الرشاش، والأيرلندى الكاثوليكى الذى يرفع علم بلاده الأيرلندية ويحاول التفوُّه ببضعة حروف من لغة بلاده الأصلية وكأن كل حرف يحمل رسالة ذات مغزى عميق.

وفى صهيون الجديدة الإسرائيلية ما زال **عدم التجانس هو أخشى ما يخشاه حكام إسرائيل**. وهى ظاهرة تعبِّر عن نفسها فيما يسمى بالأمتين الإسرائيليتين: إسرائيل اليهود الشرقيين (سفارديون) وإسرائيل اليهود الغربيين (أشكيناز). وداخل كل «إسرائيل» توجد جماعات قومية صغيرة لا تزال مزدوجة الولاء وتشعر بالحنين للوطن الأم، مما يدل على أنهم لم يكتسبوا الهوية الإسرائيلية اليهودية الخالصة.

*** ولكن هناك فرق**

ومع سيطرة الفلسفة البراجماتية (فلسفة الإنجاز) على الدولتين، يظل هناك فرق جوهرى بين البراجماتية الأمريكية والبراجماتية الصهيونية. **فالبراجماتية الأمريكية** هى براجماتية غير مُثقَلة بأى أساطير، ولذا فهى براجماتية متسقة مع نفسها؛ تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها. أما **البراجماتية الصهيونية** فهى براجماتية منكرة للتاريخ (حق الفلسطينيين فى أرضهم)، بالرغم من أنها مثقلة بالأساطير والتواريخ المقدسة التى يَدَّعوا من خلالها أحقيتهم التاريخية فى فلسطين !.

*** درس إعلامى**

مما مضى نخلص إلى درس إعلامى هام، إذ ينبغى أن نضع فى حُسباننا أنه **من اليسير على الشعب الأمريكى فهم العقلية الإسرائيلية** والتعاطف مع الشعب الإسرائيلى وقيمه اللاأخلاقية من عنصرية وعنف، نظرًا للتشابه بين وجدان الشعبين. وهذه النتيجة ليست دعوة لليأس، وإنما هى مجرد تَعَرُّف

على عنصر موجود بالفعل، إن لم نعترف به هَزَمَنا وأفشل خِططنا، وإن اعترفنا به ساعدنا على معرفة حدود ومدى أى حملة إعلامية نقوم بها. إن الشعب الأمريكى وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكاوبوى لا يفهمون سوى منطق القوة، ولا يحسون إلا بالنتائج العملية المباشرة، لذلك فالإعلام الذى لا تسنده قوة أو وضع قائم بالفعل ما هو إلا دعوة للأخلاق الحميدة لا ينصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعـد دقائق.

الثمرة الرابعة بعد المائة...

مشكلة المرأة والضغوط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث

* صـدق أو لا تصـدق: التمركز حول الأنثى

من الموضوعات الأساسية التى تناولتها فى كتاب «الفردوس الأرضى» مشكلة المرأة فى المجتمع الحديث. حينما وصلنا إلى الولايات المتحدة عام 1963، **كانت الأمور بالنسبة للمرأة هادئة** بل خانقة، وحينما عدت إليها عام 1971 كانت الأمور قد تغيَّرت بشكل جذرى، ولم تعد الإناث يطالبن بحقوقهن وبالمساواة فحسب بل كانت هناك ثورة تجاوزت الإنسانية المشتركة للرجل والمرأة. ومن هنا أميز بين **حركة تحرير المرأة** women's liberation movement وهى حركـــة مشروعـــة، وبين حركـات الـ feminism التى أترجمها بتعبير «**التمركز حول الأنثى**».

أُنظر إلى المنشور الثورى الصادر عن جماعة «سكم «Scum، والكلمة تعنى «نفاية» ولكنها اختصار لعبارة إنجليزية ترجمتها الحرفية هى «**جماعة التخلص من الرجال**»؛ يبدأ المنشور بتأكيد أن الحياة فى هذا المجتمع أصبحت شيئًا «يبعث على الملل الشديد، لذلك ينبغى على السيدات المسئولات

الباحثات عن المتعة أن يقلبن نظام الحكم ويلغين النظام النقدى ويُدخِلن نظام الصناعة الآلية ويقضين على جنس الذكور». ثم يستطرد المنشور العتيد قائلًا: «لقد أصبح من الممكن الآن للسيدات أن يلدن دون أى مساعدة من الذكور وأن يلدن إناثًا فقط، وينبغى البدء فى هذا على الفور». ويدعى المنشور أن جينوم الذكر إن هو إلا جينوم أنثى غير كاملة، فهو يحتوى على مجموعة غير كاملة من الكروموسومات؛ **شىء أجهض على المستوى الجينى ولكنه يسير على قدمين**. ولأنه أنثى غير كاملة. يقضى الذكر حياته بحثًا عن كائن يحتوى على مجموعة كاملة من الكروموسومات (الأنثى) ليصادقها ويعيش معها ويمتزج بها، وبعد ذلك يدعى أن كل الصفات الأنثوية المتميزة هى صفاته؛ مثل القوة والاستقلال والديناميكية والقدرة على اتخاذ القرارات والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والحيوية والجِدَة وعمق الشخصية... إلخ. كما إنه يُسقط كل سمات ذكورته على المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف... إلخ.

والصراع ـ حسبما جاء فى المنشور ـ ليس بين الإناث والذكور وحسب، ولكن بين «السكم»، وهن الإناث المسيطرات الآمنات الواثقات بالنفس، العنيفات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة، اللائى يعتقدن أن عندهن المقدرة على حكم العالم، نقول إنه **صراع بين «السكم» وبين الإناث اللطيفات** السلبيات المؤدبات الخاضعات، والخائفات اللائى لا يثقن البتة بأنفسهن، بنات آبائهن اللائى لا يمكنهن مواجهة المجهول، واللائى لا يشعرن بالاطمئنان إلا و«بابا» الكبير يقف إلى جوارهن أو باعتمادهن على رجل كبير قوى يشد من أزرهن.

وبعد تحقيق المدينة الفاضلة التى يحكمها السكم قد **يتبقى بعض الرجال** الذين سيقضون بقية أيامهم فى رعب يشربون المخدرات، أو يراقبون فى

سلبية وسكينة الأنثى الجديدة المسيطرة. وحيث إن الإناث رحيمات فسيزوِّدن الرجال بأجهزة إلكترونية، بحيث إذا وقع أحد الذكور صريع هوى إحدى الإناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشبع غرائزه ودون أن تشعر هى بذلك !.

وحتى لا يقال إن منشور سكم مجرد عبث ومزاح، انظر إلى **مبادئ «سيدات نيويورك الراديكاليات»**، وهى جماعة جادة تعمل جاهدة لتحرير المرأة، يقول منشور لهن: «نحن نقف إلى جوار المرأة فى كل شىء، طالما كان فى مصلحتها. نحن ضد كل الأيديولوچيات والآداب والفلسفات السابقة، فهى نتاج حضارة الذكور... إلخ».

*** عقـد الزواج الشامـل**

طَرَحَت حركات التمركز حول الأنثى ما يمكننا تسميته «عقد الزواج الشامل»، وهو **يشبه عقد استئجار شقة أو شراء أرض**؛ إذ يحاول هذا العقد المُبرم بين الرجل وزوجته تغطية جميع الجوانب القانونية وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية التى تنشأ داخل الحياة الزوجية. وقد وُصف العقد بأنه «أسلوب جديد للحياة لمواجهة ألفى سنة من التقاليد» (ألفى سنة من التاريخ أيضًا). وهو فى واقع الأمر تعبير عن تغلغل أخلاقيات السوق فى كل مناحى الحياة، بحيث تُدار مؤسسة الزواج نفسها، آخر مأوى للإنسان، وكأنها شركة مساهمة؟!.

انظر إلى **بعض بنوده** لترى هل قام العقد فعلًا بتنظيم كل العلاقات:

- لكل طرف فى العقد حق كامل فى **وقته وعمله وقيمه واختياراته**، وإن أراد أن ينفق هذا الوقت فى كسب المال فهذا من حقه.
- من ناحية المبدأ، يجب أن **نقسِّم الأعمال** المنزلية إلى نصفين 50 - 50،

ولكن يمكن **عقد صفقات** بتراضى الطرفين، وما فى هذا العقد من شروط هو حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات.

- **تقسيم الأعمال**: إيقاظ الأطفال فى الصباح ـ إعداد الملابس والكتب والواجبات والنقود وأبونيهات الأتوبيس ـ تمشيط شعرهم ـ إطعامهم، يتناوب الأبوان القيام بكل هذه الواجبات كل أسبوع. **الشراء**: تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام، أما الزوج فيقوم بشراء الأشياء الخاصة.

- كل من يدعو ضيوفًا يقوم بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الأطباق.

والآن بعد أن أُبرم العقد، فلترفرف السعادة الزوجية على الجميع، ولتقضى على سيادة الوحدة المذكرة (التى يسميها العوام الزوج) وتدفعه للتعاون مع الوحدة المؤنثة (المسماه بالزوجة)!.

هل فعلًا قام العقد بتنظيم كل العلاقات؟ ماذا لو حدث للرجل حدث تضخم شديد فى ذاته؟ هل يُفَض العقد فورًا أم تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة؟ وماذا يحدث لو أن الرجل بعد أن تزوج على هذه الطريقة الليبرالية أصبح ماركسيًّا أو رجعيًّا ورفض المبادئ المُنَظِّمة للعقد؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلًا؟.

إن هذا العقد مثل الكمبيوتر، يعطيك إجابات مبتسرة ولا يمكنه أن يغطى جميع جوانب الحياة المركبة. وإذا كان العقل الإلكترونى قد قدم للأمريكان الإجابات الخاطئة بالنسبة لحروب فيتنام وأفغانستان والعراق، فإن عقد الزواج الميكانيكى سيضللهم؛ لأن المطلوب هو إصلاح نوعية الحياة نفسها فى ضوء الفوارق الحقيقية بين الذكور الإناث.

*** ماذا تريد هذه السيدة؟**

كنت أعرف سيدة أمريكية من رائدات حركة التمركز حول الأنثى، وقد زارتنى وأسرتى عام 1974، وأبدت رغبتها فى التعرف على رائدات حركة تحرير المرأة فى مصر. فاتصلتُ بالدكتورة سهير القلماوى ـ رحمها الله ـ فتفضلت مشكورة بدعوتنا إلى طعام الغداء. وتحدثت السيدة الأمريكية عن المساواة بين الرجل والمرأة وعن تحرير المرأة، وكانت الدكتورة سهير توافقها على ما تقول، إلى أن وصلت إلى نقطة شعرت عندها الدكتورة سهير أن **الأمر لم يعد حديثًا عن تحرير المرأة وإنما عن تثويرها ضد الرجل وعزلها عنه.**

التفتت إلىَّ الدكتورة سهير وقالت بالعربية: «**ماذا تريد هذه السيدة؟** إن أخذنا برأيها، سيكون من المستحيل علينا أن نجمع بين الذكور والإناث مرة أخرى؟». لقد لخصت كلماتها البسيطة الرائعة **الفروق الحادة بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى**، بين من يدرك الإنسانية المشتركة ومن يرفضها، بين من يرى أسبقية المجتمع على الفرد ومن يرى أن الذات الفردية هى البداية والنهاية، وأخيرًا بين من يضع الإنسان قبل الطبيعة والمادة ومن يرى أسبقية المادة على وعى الإنسان وحضارته وتوجهه الاجتماعى والأخلاقى.

*** الأنثوية والصهيونية: ما أشبه هذه بتلك**

إذا قارنا بين حركة التمركز حول الأنثى والحركة الصهيونية وجدنا تشابهًا كبيرًا، **فكلاهما يُقسِّم العالم بطريقة إثنينية بسيطة** (إناث/ ذكور – يهود/ أغيار)، ويتمركز كل عنصر حول ذاته.

وتدَّعى كلٌ من الحركتين أنها حركة ثورية، لكن برنامجها «الثورى» لا يهدف إلى تحقيق العدل بالنسبة لليهود أو للمرأة فى أى مكان من العالم.

فالصهيونية تعادى كل من يحاول الدفاع عن حقوق اليهود الدينية والمدنية خارج إسرائيل! فهذه المحاولة تقوض الهدف الصهيونى (هجرة اليهود من بلادهم إلى إسرائيل). ونفس الشىء بالنسبة لحركة التمركز حول الأنثى؛ فالهدف ليس تحقيق مكاسب للمرأة داخل إطار اجتماعى باعتبارها أمًّا وأختًا وزوجة، وإنما الهدف هو الاستقلال التام عن الذكور.

لكل هذا نجد أن البرنامج الثورى لكلتا الحركتين لا ينطلق من الإيمان بالإنسانية المشتركة، وإنما من الإصرار على تفرد اليهود وتفرد الإناث. لذا يصبح الهدف من البرنامج الثورى هو تحسين «كفاءة الصراع» لدى اليهودى والمرأة، وهذا يبين أن النموذج الكامن وراء الحركتين، **نموذج صراعى داروينى**.

ومن أطرف مظاهر هذا النموذج، حوارى مع السيدة زعيمة حركة التمركز حول الأنثى التى سبق الإشارة إليها، إذ قالت لى مرة: إن العلاقة الجنسية فى الزواج هى مواجهة سياسية political encounter، فضحكت وقلت لها: «أنت لا تعرفين شيئًا، إما عن المواجهة السياسية أو عن العلاقة الجنسية».

ثالثًا: إشكالية التحيز

الثمرة الخامسة بعد المائة...

إحساسى بإشكالية التحيز: البذور والجذور

أَمُرُّ على الديارِ ديارِ ليلى ... أُقبِّلُ ذا الجدارَ و ذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفنَ قلبى ... ولكنْ حُبُّ من سكَن الديارا

أذكر فى صباى أن أستاذ اللغة العربية كان يقرأ معنا المعلقات الشعرية،

التى عادةً ما **تبدأ بالبكاء على الأطلال**، وكان شديد السخرية منها، مما **يعكس تحيزه الشديد ضد حضارته** لأنه لم يكن يعرف الهدف من هذه البدايات ولا وظيفتها فى بناء القصيدة ولا مضمونها الفلسفى. كنت أدرك (بشكل غير واع) أن البكاء على الأطلال مفعم بالنبل والحزن، وهو علامة على أن الإنسان لا ينسى، لأنه لو نسى وضاعت ذاكرته لكان شيئًا بين الأشياء؛ أى أن **البكاء على الأطلال هو رمز الاختلاف الجوهرى بين الإنسان والطبيعة.** قد تُلحق الطبيعة الهزيمة بالإنسان، وقد تضطره للرحيل من مكان لآخر، وقد يكون وضع الإنسان فى هذا الكون مأساويًا، ولكنه مع هذا **يظل معتزًا بما هو إنسانى حتى فى لحظة الهزيمة.**

بدأَت مسألة التحيز المعرفى تطرح نفسها عَلَىَّ بعد **انتقالى من دمنهور إلى الإسكندرية**، إذ لاحظت التباين فى العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة/ القرية المصرية من ناحية وبين المدينة الكوزموبوليتانية (المصرية اسمًا، الغربية فعلًا) من ناحية أخرى.

وقد تعمَّق فِىَّ الإحساس بالتحيز حينما بدأت أقرأ فى **الأديان المقارنة وتاريخ الفن**. كما تعلمت من **عِلْم الأنثروبولوچيا** أن هناك حضارات لا يحتوى النموذج الإدراكى المهيمن عليها إلا على لونين أو ثلاثة، لذا لا يرى أهلها إلا هذه الألوان. وتوجد حضارات لا يعرف أهلها مفهوم «الذات»، لذا إن سألت أحد أفراد هذه الحضارات عن قصة حياته فهو عادةً ما يذكر قصة حياة جده. وحين يقول طفل الإسكيمو: «انظر الثلج»، فإن كلمة «الثلج» فى لغته يتم التعبير عنها ربما بخمسين كلمة غير مترادفة، فكل كلمة تعبِّر عن شكل معين وحالة معينة للثلج.

وقد قضيت عامًا كاملًا أقرأ عن اليابان وفنونها ومؤسساتها الحضارية، مما عَمَّق فِىَّ الإحساس بالآخر وبنماذجه الحضارية التى تختلف بشكل جوهرى

عن نماذجنا وكذلك عن المؤسسات والنماذج الغربية، **مما ينزع الإطلاق عن الحضارة الغربية**، لتصبح تشكيلًا حضاريًّا ضمن العشرات من التشكيلات الحضارية الأخرى.

وكانت التجربة الحاسمة هى **انتقالى إلى الولايات المتحدة**؛ فقد واجهنى فى حياتى اليومية الكثير من الأمثلة التى نبهتنى إلى أن **إدراكنا للواقع ليس هو الواقع فى حد ذاته**، وأن إدراك الآخر لظاهرة ما يختلف عن إدراكنا لها. وتساءلت: كيف أنظر إلى ظاهرة ما؟ هل أنظر إليها من وجهة نظر الآخر (الأمريكى) أم من وجهة نظرى أنا؟.

الثمرة السادسة بعد المائة...

التأثير المتبادل بين التحيز والخريطة الإدراكية

حين وصلتُ إلى الولايات المتحدة عام 1963، دُعيت لمشاهدة مسرحية لشكسبير، فذهبت دون أن أرتدى **جاكتة أو رباط عنق**. فهمس أحد الأساتذة الأمريكيين فى أذنى بأننى لا بد أن أرتديها، وأضاف: «ألا يستحق شكسبير منك ذلك؟»، فاستجبت. ولكن قبل عودتى إلى مصر فى عام 1969، ارتديت الجاكتة ورباط عنق للذهاب إلى المسرح مع بعض الأصدقاء الأمريكيين، فكنت موضع سخريتهم لأن ارتداء الجاكت كان قد أصبح موضة قديمة وعلامة من علامات التخشب والتجمد stuffiness، أدركت ساعتها أن الجاكت ليس شيئًا ماديًّا يستر به الإنسان جسمه ويدفئ بدنه، وإنما هو علامة على شىء ما، لغة كاملة.

ويشير صديقى كافين رايلى فى كتابه «**الغرب والعالم**» إلى أن تكنولوچيا الطاقة المستندة إلى الهواء والماء كانت متقدمة للغاية فى أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر، وهى **تكنولوچيا نظيفة**، تعمل مع الطبيعة لا ضدها. ومع هذا

حينما بدأت ثورة أوروبا الصناعية تطورت تكنولوچيا الطاقة المستندة إلى الفحم ثم البترول، وانقرضت التكنولوچيا النظيفة تقريبًا. ويُرجع رايلى هذا التطور إلى **التحيز الكامن فى النموذج الإدراكى الإمبريالى**: بقر بطن الأرض - نهب ما فيها - استهلاك المصادر الطبيعية دون اكتراث بالنظام البيئى وبحق أجيال المستقبل فى الثروات الطبيعية.

بعد الصراع الذى ذكرته أثناء مناقشة رسالتى للدكتوراه، وكان صراعًا بين تحيزات مختلفة، رفضت دور النشر الجامعية نشر الرسالة دون إبداء الأسباب، ولم تصارحنى إلا جامعة أوهايو التى أشادت بالرسالة باعتبارها فريدة من نوعها ثم أضافت: «مع هذا فإن جامعة أوهايو قررت عدم نشرها لأن كاتبها قام **بالهجوم على إحدى البقرات الأمريكية المقدَّسة** (أى وولت ويتمان!)».

الثمرة السابعة بعد المائة...

التحيز الأبله: التحيز ضد الذات

أصبت بصدمة حقيقية عندما كنت أنا وزوجتى نتناول طعام العشاء مع طالبتين من إريتريا فى منزلنا، وأخذت أمزح مع إحداهما وسألتها عن نوع الرجل الذى تود الزواج به، فتغلبت على حيائها وقالت: رجل إيطالى، ولما كانت لا تعرف الإيطالية ولم تذهب قط إلى إيطاليا فقد نالت منى الحيرة، حتى اكتشفت أن هذه المنطقة من العالم قد غزتها إيطاليا، فولَّد هذا فى نفس الفتاة **تحيزًا للغازى**.

إن إحدى المفاهيم التى تعلمناها باعتبارها بديهية من البديهيات؛ أن مشكلة المشكلات فى التعليم المصرى هى التركيز على **حفظ الدروس عن ظهر قلب** (ويتمتم بعضهم بأن الحفظ يعود بجذوره إلى التعليم الدينى

وحفظ القرآن). ولكن حين وصلت إلى جامعة كولومبيا (فى الولايات المتحدة) عام 1963، فوجئت أنه كان من المطلوب منا فى دراسة الماجستير أن نحفظ عن ظهر قلب بعض قصائد الشعر الرومانتيكى. وحين سألت عن السبب قيل لى إن الحفظ يُعَد من أحسن آليات **إنشاء المودة والحميمية بين الطالب والنص**، كما عرفت أن النظام التعليمى فى اليابان لا يحتقر الحفظ على الإطلاق وإنما يوظِّفه. ثم تعلمنا أن فى كثير من العلوم الإنسانية، بل وفى العلوم التجريبية التطبيقية، لا بد أن يقوم الطالب بحفظ بعض النظريات والقواعد والعناصر الأساسية عن ظهر قلب. فأحسست أن **رفضنا الكامل للحفظ يُعتبر تحيزًا أعمى ضد تراثنا**، وتحيزًا أكثر عماءً لإحدى مقولات الفكر التقدمى الغربى التى نقلناها وحفظناها عن ظهر قلب كأنها مقولة علمية مطلقة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها.

ومن التحيزات البلهاء الأخرى ضد الذات والتى بدأت تدخل فى حياتنا **التحيز للعامية ضد الفصحى**، ويظهر ذلك فى الإعلانات بالعامية ولغة بعض الصحف وغيرها من وسائل الإعلام. وما لا يعرفه هؤلاء المتحيزون أن الدول الغربية تبذل أقصى جهدها فى **تمويل مشروعات بحثية تهدف إلى دفع العاميات العربية إلى الأمام** لكى تنقطع صلتنا بتراثنا الفلسفى والفكرى والأدبى والاجتماعى والعلمى والدينى، ويعزلنا عن تاريخنا وماضينا الذى يجمعنا كأمة عربية وإسلامية، فتزداد هذه الأمة تمزقًا، وتتحول إلى دويلات صغيرة لا يربطها رابط. إن حلم الفصحى ليس «حلم العودة للماضى»، وإنما «**حلم الانطلاق نحو غد**» يمسك فيه العرب بزمام أمرهم. أما التحيز للعامية، فهو طريق الهزيمة والسوق الشرق أوسطية التى تهيمن عليها إسرائيل (القوة الأعظم بين هذه الدويلات) وهذا هو التطبيع الحقيقى لإسرائيل.

إن المتابع **للصحف اليومية العربية** يرى أنها تجسد فى بنيتها التحيزات

المعرفية الغربية دون أن تدرى. وإلا فبم نفسر سلوك هذه الصحيفة العربية التى صدرت وفى صفحتها الأولى خبر مثير عن قطارين اصطدما فى الهند مما أودى بحياة بضع عشرات، على حين أوردت فى صفحتها الأخيرة، صفحة الاجتماعيات والفضائح، خبرًا عن عدد الأطفال غير الشرعيين فى إنجلترا الذين بلغ عددهم ذلك العام ٪50 من كل المواليد؟. فى خبر الصفحة الأولى كان الضحايا نتيجة **فشل تكنولوچى**، وهذا هو الفشل الوحيد الذى تعترف به الحضارة الغربية، فحذونا حذوهم ووضعنا الخبر فى الصفحة الأولى. أما الخبر الثانى فهو نتيجة **فشل أخلاقى** وهذا ليس بفشل من منظور النموذج الحضارى الغربى، لذا نضعه نحن أيضًا فى صفحة الاجتماعيات، وكأننا ببغاء عقله فى أذنيه.

ومن المظاهر المؤلمة للتحيز للنموذج الحضارى الغربى ما نردده من أن فلانًا قد **اكتشف** قارة أمريكا أو أستراليا وأن فلانًا قد اكتشف منابع النيل، وكأن هذه المناطق تقع فى كوكب أخر ولم تكن مناطق مأهولة بسكانها الذين شيدوا فيها حضارات عريقة، لكن الغرب لا يعترف بأن مكانًا ما قد خرج إلى الوجود إلا بعد أن يدخل فى نطاق الغرب المعرفى، ونحن نكرر دعاويهم.

أما التحيز الأبله فى مجال الفنون فتراه فى **تاريخ المسرح العربى الحديث** الذى بدأ بترجمة مسرحيات مختلفة عن الفرنسية والإنجليزية، ثم ترجمة النظريات الغربية فى المسرح، حتى أصبح المسرح بالنسبة لنا هو **المسرح بالمعنى الغربى**: يجلس المتفرجون منفصلين تمامًا عن العمل الفنى فى مواجهة خشبة المسرح التى عادةً ما تغطيها ستارة، ويبدأ العرض بعد رفع الستار وينتهى بإسدالها. لقد حَرَمَنا التبنى المبكر لهذا المفهوم عن المسرح من التعرف على الأشكال المسرحية فى تراثنا، والتى يختلط فيها الأداء المسرحى بالسرد القصصى والمقطوعات الغنائية مثل صندوق الدنيا وخيال الظل والسيرة الهلالية والسير البطولية الأخرى.

وأعتقد أننا لو درسنا **المسرح الياباني** لاكتشفنا عالمًا مسرحيًا مختلفًا تمامًا، فهو مسرح لا يجلس الجمهور فيه فى مواجهة الممثلين وإنما يختلطون معهم تمامًا، كما تختلط فيه الأنواع الأدبية بشكل رائع.

الثمرة الثامنة بعد المائة...

التحيز وفرض النموذج الداروينى: من الكاوبوى إلى توم آند جيرى

إن المتأمل **لأفلام رعاة البقر** التى طالما عشقناها فى طفولتنا وصفقنا لها، يدرك كيف تنقل لنا هذه الأفلام **نموذجًا إدراكيًا إمبرياليًا عنصريًا بشعًا متحيزًا ضدنا**. فبطل الفيلم هو **الكاوبوى** أو الرائد pioneer، الرجل الأبيض الذى يذهب إلى البرِّيَّة (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه. وكلنا يعرف المنظر الشهير؛ حين يقف اثنان من رعاة البقر فى لحظة المواجهة التى يفوز فيها من يصل إلى مسدسه «أسرع» من الآخر. إن هذا المنظر الذى انطبع فى مُخليتنا منذ نعومة أظفارنا، يعلمنا كل **أسس الداروينية الاجتماعية**: أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة، وأنه لا يُكتب البقاء إلا للأصلح، أى الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاءً ومكرًا، وهى مجموعة من الصفات التى لا علاقة لها بأى منظومة قيمية، دينية كانت أو أخلاقية أو إنسانية. وحينما يظهر الهنود الأشرار، هؤلاء «الإرهابيون» (أصحاب الأرض الأصليون) الذين لا يتركون الرائد الأبيض وشأنه كى يرعى أبقاره ويبنى مزرعته (أى مستوطنته) على أرضهم وأرض أجدادهم، يضطر «المسكين» إلى حصدهم برصاصه حصدًا «دفاعًا» عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقة!. كنا فى طفولتنا نستمتع بكل هذا دون أن ندرك أن **الكاوبوى هو فى واقع الأمر الإنسان الأبيض الإمبريالى الذى نهب ديارنا وثرواتنا وأذلنا**، وأنه أيضًا **الرائد الصهيونى**. ولم ندرك أن **الهنود** هم نحن،

العرب والفلسطينيون، وأن **البَرِّيَّة**، هى فى واقع الأمر، العالم الثالث بأسره، أرض بلا شعب. ولا تزال الملايين تشاهد أفلام الويسترن وتتبنى ما فيها من تحيزات دون وعى.

ولعل تغلغل النموذج الصراعى الداروينى فى نفوسنا يتضح فى هذه القصة الطريفة. كنت أتناول طعام العشاء مع صديقين من المتمسكين بقواعد الدين وأهداب الفضيلة. ثم حان موعد ما يُسمَّى «**المصارعة الحرة**»، وهى أمر يثير لَدَّى الغثيان بالفعل. وفوجئت بأن الصديقين يستمتعان بما يريان ويأكلان بشهية غير عادية، فسألتهما: «لو كان رسول الله ﷺ معنا، هل كان سيوافق على هذه المصارعة الحرة؟» فسارع صديقاى بالنفى قائلين: «الرسول ﷺ ما كان ليقبل هذا». سررت من إجابتهما وسألتهما عن السبب، فقالا: «المصارعان لا يرتديان مايوهات شرعية»! لقد نسى الصديقان أن المصارعة الحرة تحول الإنسان إلى كتلة من اللحم تتصارع مع كتلة أخرى من اللحم بمنتهى الشراسة، وتسود حلبة المصارعة قوانين الغابة وتخلو تمامًا من أى مفاهيم إنسانية. نسى الصديقان كل هذا لأنهما **تبنيا النموذج الصراعى الداروينى**، ولم يبق أمامهما سوى **حلم المايوه الشرعى**.

ويظهر تبنِى النموذج الإدراكى الداروينى المتحيز دون وعى فى شغفنا الزائد **بأفلام توم وچيرى**، والتى تُصنَّف فى كل البلاد العربية الإسلامية على أنها حلال وبريئة (فهى لا تحوى صورًا عارية ولا قصصًا ملتهبة ولا دعاية أيديولوچية) لهذا نترك التليفزيون مفتوحًا وأطفالنا جالسين أمامه عُزَّلًا، يلتهمون ما يرون. مع أننا لو تأملنا قليلًا لاكتشفنا أن هذه الرسوم المتحركة تجسد **نموذجًا إدراكيًّا يتضمن تحيزات صراعية واضحة**، أى أنها تنقل لنا سمًّا زعافًا. **فالعالم إن هو إلا غابة داروينية** ملأى بالذئاب التى تلبس ثياب القط والفأر، فهما فى حالة صراع دائم لا ينتهى، وعالمهما خالٍ تمامًا من القيم،

ونحن نحب **الفأر** ونكره **القط** لا لأنهما يمثلان الخير والشر، بل لأن الفأر ذكى ولذيذ، أما القط فغبى وثقيل الظل، أى أن القيم التى تسود العمل، هى قيم نسبية نفسية وليست أخلاقية. كما أن القط هو رمز عالم الإنسان إذ يحرس زادنا وحياتنا من الفأر الذى يسرق كل ذلك، والمطلوب منا أن نبغض الأول ونحب الثانى، نبغض الحضارة الإنسانية ونحب الانطلاقة الطبيعية/ المادية التى لا تحدها حدود أو قيود. كل هذا نُعرِّض أطفالنا له ونظن أنه برىء وحلال !.

الثمرة التاسعة بعد المائة...

كيف نحقق التقدم فى ظل التحيز؟

* لجنة التعمير الحضارى

فى أعقاب حرب أكتوبر، شكَّل الأستاذ هيكل، فى مؤسسة الأهرام، لجنة التعمير الحضارى لدراسة **المشروع الحضارى العربى ومستقبله** بعد الانتصار الذى حققته الأمة العربية آنئذ نتيجة لتوحُّد الجهود العسكرية والاقتصادية. وانقسم الحاضرون أمام الإشكاليات التى طرحتُها إلى جناحين: جناح يضم الدكتور زكى نجيب محمود والدكتور محمود فوزى ويشاركنى الرأى فى أهمية أن نتحفظ فى استيرادنا للأنماط الحضارية الغربية حتى **نحتفظ بهويتنا**، وجناح آخر يضم الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى والدكتور لويس عوض، ويرى أن النموذج الحضارى الغربى جدير بالتبنى بأكمله، وأنه لا يوجد نموذج آخر بديل، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم وتاريخهم وأن **يحذوا حذو أوروبا فى كل شىء**. فالتحديث فى رأى هؤلاء هو فى واقع الأمر **التغريب**، أى اتباع أساليب الغرب فى التفكير والسلوك والتنمية (بحلوه ومره).

* حوار مع توفيق الحكيم

أخبرت الأستاذ توفيق الحكيم أثناء المناقشة أنه قد شكك فى بعض كتاباته فى قيمة الحضارة الغربية وقيمها، وأنه دعا إلى نهج فلسفى مستقل. تنكر الأستاذ توفيق الحكيم لكتاباته وأصر على أنه لا خلاص لنا إلا بتبنى الحضارة الغربية بحذافيرها. فأخبرته أن الحضارة الغربية تغطى آلاف السنين وعشرات الأنساق الخُلُقية والتاريخية، **فأى غرب هذا الذى سنقلد؟** أهى فرنسا أم إنجلترا أم الولايات المتحدة أم إسبانيا أم روسيا؟ ثم أضفت، حتى أضمن استمرار الحوار: فلتكن إنجلترا التى نعرفها أكثر من غيرها، هنا سيطرح السؤال نفسه مرة أخرى، أى إنجلترا هذه؟ هل إنجلترا العصور الوسطى حين سادت قيم أخلاقية دينية لا تختلف كثيرًا عن قيم أى مجتمع تقليدى، أم إنجلترا عصر النهضة حين بدأت فكرة الفردية واقتصاد التجار فى الظهور، أم إنجلترا القرن الثامن عشر وعصر العقل والفلسفات الميكانيكية، أم إنجلترا القرن التاسع عشر وعصر الثورة الصناعية والانقلاب الرأسمالى الاستعمارى وقيم النفعية والعنصرية، أم إنجلترا القرن العشرين والكمبيوتر والمخدرات ووسائل الانتقال السريعة والشذوذ الجنسى وفلسفات الحرية والعبثية واللذة والعدمية؟.

ثم طرحت سؤالًا آخر أكثر جذرية: **ما جاذبية مثل هذا النموذج الغربى؟** وما الذى يجعلنا نتبناه ونحن نعرف تكلفته الإنسانية العالية؟ وهل يجب أن نأخذ المخدرات مع الكمبيوتر، وفلسفات العبث والعدمية مع وسائل الانتقال السريعة؟. أصر توفيق الحكيم على أنه لا يمكن تَبَنى جزءًا من النموذج الغربى وحسب وإنما **يجب تبنيه كله**. فكان ردى أن الغرب حينما دخل العصر الحديث على هذا النحو، وحينما أفرز المخدرات والعدمية، كان كالبطل المأساوى الذى يجلب على نفسه كارثة دون أن يدرى،

وأننا إذا سرنا فى نفس الطريق وارتكبنا نفس الأخطاء وانتهينا نفس النهاية فلن نكون أبطالًا ولا مأساويين، وإنما سنكون مهرجين مقلدين لا نستحق حتى العطف أو الرثاء!.

وأضفت قائلًا: إن **النمط الغربى لا يمكن تكراره إلا من خلال تبنى السلوك الإمبريالى**، وهذا بديل غير مطروح بالنسبة لنا. واستشهدت على ذلك بإحصائيتين فى منتهى الدلالة: الأولى بخصوص ما نهبته إنجلترا من الهند وأنه يفوق كل ما أنتجته إبان ثورتها الصناعية، والثانية بخصوص الرأسمالية الأمريكية وقفزتها الهائلة التى حققتها فى منتصف القرن التاسع عشر من خلال عدة عناصر من أهمها صناعة المنسوجات القطنية، والتى تعتمد على محصول القطن الرخيص الذى كان ينتجه آلاف العبيد السود الذين تمت سرقتهم من إفريقيا وأُجبروا على العيش تحت أقسى أنواع الظلم ودون حد الكفاف. **إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب، وإنما هى من صميم هذه الحضارة.**

ثم سألت الأستاذ توفيق الحكيم: «هذه الحضارة الغربية الحديثة لماذا لا تُصَدِّر لنا القيم النبيلة السامية مع ما تُصَدِّر من سلع وأشياء؟. **من كان يقف ضد التحديث والديمقراطية والاستنارة عبر تاريخ مصر والجزائر وسوريا؟** ألم تكن جيوش أوروبا هى التى قصفت بالمدافع الجماهير العربية التى طالبت بحريتها وحقوقها؟ أليست هذه الجماهير هى التى رفعت لواء القيم الغربية النبيلة السامية وماتت من أجلها، بينما كانت جيوش أوروبا تقف لهم بالمرصاد؟».

ثم سألت توفيق الحكيم عن الممثل الرئيسى للحضارة الغربية فى شرقنا العربى، أليست هى الدولة الصهيونية؟ دولة قامت على أرض الآخرين، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو الاستنارة أو أى قيم نبيلة أو سامية، وإنما من

منطق القوة وشريعة الغاب. كان رد توفيق الحكيم صادمًا، فقد كان **يرى أن النموذج الصهيونى نموذج يستحق أن يُحتذى** (وكذلك كان رأى د. حسين فوزى وآخرين).

ومن ضمن قناعاتى الحالية أن **الإنسان الذى يؤمن إيمانًا أعمى بالنموذج الحضارى الغربى، عادةً ما ينتهى به الأمر بتقبل الدولة الصهيونية**. ومن حق أى فرد أن يعجب بأى نموذج، بما فى ذلك نموذج البلد الذى نَكَّل به واحتل أرضه، وأن يكون مستغرِقًا فى الإعجاب بالغازى وبالمنتصر (كما هو الحال مع معظم البشر)، **لكن ليس من حقه أن يروج لنموذج ما دون دراسة لأصوله** وأسباب نجاحه المزعوم ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان.

*** سمات متفردة شاذة للكيان الصهيونى:**

على الذين يدعوننا لتبنى النموذج الصهيونى أن يدركوا الخصوصية التى تفَرَد بها هذا الكيان وجعلته غير صالح للتكرار (كما ذكرنا مع النموذج الإمبريالى الغربى). ولنستعرض سويًا بعضًا من السمات الشاذة لهذا الكيان:

1- لم تنشأ **الصهيونية** كحركة جماهيرية، وإنما نشأت بين بعض مثقفى الطبقة المتوسطة اليهودية فى شرقى أوروبا ووسطها ممن فشلوا فى تحقيق التقدم الاجتماعى داخل مجتمعاتهم، فأسسوا المنظمة الصهيونية التى كانت تدَّعى أنها ستجمع شتات الشعب اليهودى. إذًا نحن هنا أمام ظاهرة فريدة؛ «**قيادة سياسية تخلق منظمة، والمنظمة تخلق شعبًا**»، على حين أن العكس هو الصحيح فى كل الحركات القومية فى العالم. فالشعب هو الذى يتطلع ويطمح، فتظهر من بين صفوفه النخبة التى تقوم بتنظيم صفوفه لتحقيق هذه التطلعات.

2- والوضع نفسه ينطبق على **النظام الحزبى الإسرائيلى**؛ فهو النظام الحزبى الوحيد فى العالم الذى ظهر إلى الوجود قبل ظهور الجماهير التى يُعبِّر عن «مصالحها»، وقبل ظهور الوطن الذى ينتمى إليه، وقبل ظهور الدولة التى يحاول أن يستولى على مقاليد السلطة فيها! **فالحزب فى إسرائيل يسبق الشعب والدولة**.

3- **والجيش أيضًا** لا يختلف كثيرًا عن الحزب أو عن الدولة. فعصابات الإرهابيين الصهاينة بدأت مناوشاتها ضد العرب قبل ظهور التنظيمات العسكرية الصهيونية، بل قبل وصول «الشعب اليهودى» ذاته. وقد عبر أحد الشعراء الإسرائيليين عن ذلك بقوله: **إن كل الشعوب تمتلك جيشًا، ما عدا الشعب الإسرائيلى فهو جيش يمتلك شعبًا!**.

4- وأخيرًا يأتى اعتماد المؤسسات الصهيونية على **التمويل الخارجى**، فمثلًا فى كلية العلوم تجد أن كثيرًا من الأساتذة حصلوا على تعليمهم فى الخارج، بل قاموا بالبحوث فى بلادهم الأصلية ثم يقومون بنشرها فى الدولة الصهيونية. كما تجد أن المعامل يقوم بتمويلها مليونير أمريكى، أما بيت الطالبات فيموله يهود جنوب إفريقيا. كذلك فإن هناك صندوق جباية خاص بالجامعة العبرية فى الولايات المتحدة. ومن ثم فالنموذج الصهيونى **نموذج مموَّل طفيلى**، لا يمكن محاكاته أو تكراره. ولأنه يستمد عوامل حياته من خارجه، فمن المستحسن عدم محاكاته، لأنه مقضى عليه بالزوال إن زالت تلك العوامل.

وبدلًا من أن يكون موضوع الحوار فى لجنة التعمير الحضارى هو: «**كيف نحرز التقدم؟**» أصبح «**ما التقدم؟**».

الثمرة العاشرة بعد المائة...

التيه داخلنا، فأين المفر؟

لقد نجح الإنسان الغربى الحديث فى «تدويل» نماذجه الحضارية والمعرفية من خلال **الاستعمار الغربى**، وهو ما يُعرف فى الوقت الحاضر باسم «**الغزو الثقافى**». وبالرغم من أن لكل مجتمع رؤيتَه المتميِّزة للكون والتحيزات الناجمة عنها، فإن الكثير من شعوب العالم بدأت تتخلى عن رؤيتها وتحيزاتها النابعة من واقعها التاريخى والإنسانى والوجودى، وبدأت **تتبنى ـ عن وعى أو عن غير وعى ـ الرؤيةَ والتحيزاتِ الغربية**، وبدأت تنظر إلى نفسها من وجهة نظر الغرب.

لقد هيمن النموذج الحضارى الغربى على كل الاتجاهات الفكرية العربية (ليبرالية - ماركسية - إسلامية)، وللخروج من هذه الأزمة ينبغى إدراك أن **التحيز أمر حتمى لا يمكن الخروج منه كليةً**، وبعد ذلك ينبغى التحرك فى اتجاهين:

أولًا: التخلص من التحيز لنماذج الغير بقدر الإمكان.

ثانيًا: تبنى نموذج معرفى بديل نابع من التراث.

*** أولًا: كيف الخروج من تيه التحيز الأبله؟**

من أجل الإفلات من قبضة النموذج المعرفى الغربى ينبغى:

ـ دراسة أزمة الحضارة الغربية مع توضيح **نقائص ذلك النموذج** (نموذج معاد للإنسان ـ استحالة تطبيق المشروع المعرفى والحضارى الغربى لأنه يستند إلى الإمبريالية وسرقة المصادر الطبيعية من العالم وتوظيفها لحساب الإنسان الغربى ـ نموذج تتصاعد فيه معدلات

الاستهلاك بما يتجاوز حدود المصادر الطبيعية وما يصاحب ذلك من تلويث مميت للبيئة).

- دراسة **انحرافات الحضارة الغربية** (العنصرية ـ النازية ـ الإمبريالية) لا باعتبارها انحرافات، وإنما باعتبارها جزءًا من نموذج مهيمن.
- دراسة **الفكر الغربى المُعارض الذى أدرك سلبيات حضارته**.
- التأكيد على **نسبية الحضارة الغربية**، مع دراسة الظروف التاريخية والثقافية المحيطة بظهورها وبروزها.
- الانفتاح على **العالم بأسره**، وليس على العالم الغربى وحده.

* **ثانيًا: تبنى «النموذج البديل النابع من التراث»**، ويركز هذا النموذج على:

1 -الانطلاق من الإنسان باعتباره **كائنًا مُرَكَّبًا غير مادى** (يتميز بثنائية الإنسان والمادة).

2 - الإيمان **بالمقدرة التوليدية للعقل** ورفض المفهوم التراكمى.

3 - طرح «**علم بديل**» يؤمن بأن **المعرفة اجتهاد مستمر**. هذا العلم لا يهدف إلى التحكم الكامل فى الواقع عن طريق إلغاء تركيبية الإنسان والاكتفاء بالمنظور المادى الواحد. ومن ثم فإن هذا العلم الجديد لا ينبغى أن يهدف إلى الدقة المادية المطلقة ولكن إلى اليقين الكامل النابع من إشباع عُنصرىّ الإنسان (المادى والروحى).

وإذا كان الخروج من التيه وتحقيق النموذج البديل يحتاج إلى مجهودات هائلة، فإنه ليس من المستحيلات وينبغى علينا المحاولة.

***